الفصل الثالث
الديمومة الخلاقة

الوثبة الحيوية

١

ان الفكر يثبت ذاته كدينامية خلاقة حرة. ان من ميزات التجربة الداخلية ان تقنعنا بذلك . ولكن ، هل نحن وحدنا في هذا العالم ، خزنة هذه الحرية ، التي كشفت لنا على هذا النحو ؟ أليس وجودها فينا دليلاً على وجود تيار من الحياة ، ينعش جميع الكائنات ؟

الكائن الحي : يقول « برغسون » :

اذا أخذنا الحياة مأخذ الاعتبار ، حين دخولها الى العالم ، فاننا نراها حملت معها شيئاً قد انفصل عن المادة الجامدة . ان العالم، في الحالة التي يترك فيها لذاته، يخضع الى قوانين جبرية. ففي ظروف محددة تسلك المادة سلوكاً محدداً ، فما من شيء مما تفعله لا يمكن التنبؤ به ، فلو كان علمنا كاملاً ، ومقدرتنا على

الحساب لا نهائية، لكننا نعرف سلفاً ، كل ما سيحدث في العالم المادي غير المُعَضْوَن ، في كتلته وفي عناصره ، كما نتنبأ بانكساف الشمس ، او بانخساف القمر . وبالاختصار ، ان المادة عطالة ، وهندسة ، وضرورة . بيد انه بظهور الحياة ، انما تظهر الحركة التي لا يمكن التنبؤ بها ، والتي هي حركة حرة . ان الكائن الحي يختار او ينزع الى الاختيار . ان وظيفته هي الخلق . ففي عالم كل شيء محدد فيه، «تحيط بالكائن الحي منطقة من عدم التحديد » ... وهذا معناه ان الحياة هي الحرية ، على وجه دقيق ، حرية تندمج في الضرورة ، وتحولها لمنفعتها . (الطاقة الروحية ، ص : ١٢ — ١٤) .

كيف تنهج الحياة لتدخل في نسيج الظواهر المحكم مقداراً معيناً من عدم التحديد ؟ يقول « برغسون » :

اذا بحثنا عن الكيفية التي ينهجها جسم حي ، ليحقق بعض الحركات ، فاننا نلاحظ ان منهجه هو اياه ، بصورة دائمة . ان هذا المنهج قائم على استخدام بعض المواد ، التي بامكاننا ان ندعوها انفجارية ، والتي لكونها شبيهة ببارود البندقية ، لا تنتظر الا شرارة واحدة لتنفجر . انني اريد ان اتكلم عن مواد غذائية ، وبصفة اخص ، عن مواد ثلاثية العناصر ، مثل مادات الفحم والدهون. ان فيها كمية كبيرة من الطاقة الكامنة متجمعة ومتهيئة للتحول الى حركة . ان هذه الطاقة قد استمدت من الشمس ببطء وبالتدريج ، من قبل النباتات ؛

والحيوان الذي تغذى من النبات ، او من حيوان كان قد تغذى من النبات ، الخ ... لا يفعل شيئاً ، الا ان يُمرّ في جسده مادة متفجرة انتجتها الحياة ، بتخزينها للطاقة الشمسية . وهو حينما يقوم بحركة من الحركات ، انما يطلق الطاقة المخزونة على هذا النحو ، وما له لتنفيذ ذلك ، الا ان يلمس مقبضاً من المقابض ، او ان يمس زناد مسدس مساً رفيقـــاً ، ليستدعي الشرارة ؛ ان المـــادة تنفجر ، وتتحقق الحركة في الاتجـاه المختار ... ان الامر هو أمر الحصول على مادة ، تختزن بلجوئها الى عملية بطيئة وصعبة ، طاقة كامنة ، تصبح طاقة حركية على حين غرة . (الطاقة الروحية ، ص : ١٤ ، ١٥) .

انه لتجميع بطيء ، وانفجار مفاجيء ، فكيف لا يصدمنا هذا الشبه بالديمومة الداخلية ، التي هي الصفة المميزة للشعور ؟ وعندئذ ، الا تكون الحياة والشعور حقيقة واحدة وحيدة ، ما دامت الديمومة الخلاقة تتجمع على ذاتها، لتنفجر في افعال حرة ؟

وفي الواقع ، ان الكائن الحي جزيرة من عـدم التحديد ، قائمة في وسط عالم ميت[1] ، فهو لانه مزود بالحركة التلقائية ،

---

(١) ان الدماغ ، لدى الكائنات الحية العليا ، هو عضو الاختيار، وعضو عدم التحديد المميز لأرجاع الحياة . وها هي ذي كيفية ذلك :

يحتوي النخاع على عدد من الاجهزة العصبية ، مركبة بصورة من الصور ، تقوم معها، لدى وجود احساس خارجي، برد فعل مباشر. وذاك هو المنعكس. يقول « برغسون » :

ينفصل عن عطالة الاشياء المادية؛ ولكن، من يقول حركة يقول تعدداً في الاتجاهات الممكنة ، واذن ، ضرورة في الاختيار ، وحرية في الاختيار ترفع عدم التحديد. غير ان الاختيار والحرية يفترضان شعوراً يوضح الاختيار ، ويوجه التكييف . وعلى هذا النحو ، ان الشعور «مشارك للحياة في الامتداد». يقول «برغسون»:

يمكن الحياة ان تتجه في اتجاه الحركة والعمل ، — حركة ناجعة باستمرار ، وعمل حر اكثر فأكثر ؛ ان في هذا خطراً ومغامرة ، ولكن فيه الشعور ايضاً ، بدرجاته النامية في عمقها وشدتها . ومن جهة اخرى ، يمكن للحياة ان تتخلى عن ملكة العمل والاختيار ، التي تحمل تخطيطها في ذاتها ، وان تنظم

بيد ان هناك حالات ، يصعد فيها التنبيه الى الدماغ قبل كل شيء ، ثم يهبط ، ولا يؤثر في جهاز النخاع ، الا بعد ان يكون قد اتخذ من الدماغ وسيطاً ، بدلا من ان يحظى ، بصورة مباشرة ، برجع من ارجاع الجسد ، معقد في كثير او قليل ، حينما يتوجه الى النخاع . فلماذا هذه المواربة ؟ ماذا يفيد تدخل الدماغ؟ اننا نستطيع ان نخمن ذلك ، بدون اي جهد ، اذا ما اخذنا البنية العامة للجملة العصبية مأخذ الاعتبار . ان الدماغ ذو علاقة بأجهزة النخاع بصفة عامة وليس ذا علاقة فقط بهذا او ذاك من تلك الاجهزة ؛ انه يتلقى على هذا النحو تنبيهات من كل نوع ولا يتلقى فقط هذا النوع او ذاك من التنبيهات . انه اذن ، ملتقى الطرق ، حيث يستطيع التنبيه القادم من اي مسلك من المسالك الحسية ، انه يتجه في اي مسلك من المسالك الحركية . انه محول يسمح بقذف التيار المتلقى من نقطة من نقاط الجسد ، في اتجاه جهاز من اجهزة الحركة ، معين بالارادة . ومنذ ذلك الحين ، ان ما يطلبه التنبيه من الدماغ ، عند قيامه بجولته ، هو ولا شك ، ان يحرك جهازاً محركاً اختاره ، ولم يخضع له قط ... ان الدماغ عضو انتخاب . (الطاقة الروحية ، ص : ٨ - ٩) .

ذاتها ، في سبيل ان تحظى بكل ما تحتاج اليه ، دون القيام بأية حركة ، بدلاً من ان تذهب في البحث عنه ، وعندئذ ، سيكون هذا وجوداً مضموناً ، هادئاً ، ناعماً ، ولكنه سيكون ايضاً ، خَدَراً هو النتيجة الاولى من نتائج السكون ، وسرعان ما يتحول الى نوم نهائي والى لاشعور . ذانكما هما السبيلان اللذان يفتحان امام تطور الحيـــاة . ان المادة الحية قد قامت بأحد قسميها على احد السبيلين ، وبقسمها الآخر على السبيل الآخر . ان السبيل الاول يدل بجمله عـلى اتجاه العـــالم الحيواني ... والسبيل الثاني يدل بجمله على اتجاه العـــالم النباتي . (الطاقة الروحية ، ص : ١٢)

الوثبة الحيوية : يقول « برغسون » :

ان الامور تحدث ، كما لو ان تياراً عظيماً من الشعور قد اجتاز المادة... بيد ان الشعور كاد يقع في الشراك التي نصبت له . ان المادة تلتف حوله ، وتطويه في آليتها الخاصة ، ولا تلبث ان تنيمه في لاشعورهـا الخاص . ان الآلية واللاشعور همـا القاعدة ، في بعض خطوط التطور ، ولا سيما ذلك الخط المتصل بالعالم النباتي ؛ ان الحرية المحايثة للقوة التطورية لا تزال تظهر ، حقيقـة ، عن طريق خلق أشكال لا تتوقع ، أشكال هي آثار فنية حقيقية ، غير ان هذه الاشكال التي لا يمكن توقعها ، لا تلبث وقد خلقت ، ان تتكرر ، بصورة آلية ، فالفرد لا يختار . اما الشعور ، فلا يلبث في خطوط اخرى ، ان يتحرر

تحرراً كافياً، في سبيل ان يجد الفرد بعض العاطفة وبعض الحرية تبعاً لذلك ، بيد ان ضرورات الوجود قائمة هنا ، تجعل من القدرة على الاختيار ملحقاً بسيطاً للحاجة الى الحياة . وعلى هذا النحو ، ان الحرية مرتبطة اشد ارتباط ، من اسفل السلم الى اعلاه ، بسلسلة تنجح في اطالتها الى ابعد الحدود . ولكن هناك قفزة فجائية تحدث مع الانسان وحده فتنقطع السلسلة. (الطاقة الروحية ، ص : ٢٠ – ٢١) .

ماذا ترانا نقول ، الا ان الحياة والمادة تمثلان حركتين متضادتين ؟ ان صورة من الصور تقدر ان تمد لنا يد المعونة ، لتحديد هذه الفكرة ، وهذه الصورة هي صورة دفعة من البخار . يقول « برغسون » :

ان البخار المقذوف في الهواء ، لا يلبث ان يتكثف بأجمعه تقريباً ، في قطرات تتساقط ، وهذا التكثف وذاك السقوط ، انما يمثلان، بصورة بسيطة، فقدان شيء من الاشياء، وانقطاعاً، ونقصاً . بيد ان قسماً يسيراً من دفعة البخار يلتقي ، غير مكثف ، اثناء بعض اللحظات ؛ ان هذا القسم يجهد لكي يرفع القطرات التي تسقط ، فتتوصل في أقصى الحدود الى ابطاء سقوطها . وعلى هذا النحو ، لا بد ان تنقذف بدون انقطاع ، قطرات من خزان الحياة العظيم، تصبح كل منها عالماً حين سقوطها . ان تطور الانواع الحية في داخل هذا العالم ، يمثل ما يتبقى من الاتجاه البدائي ، من الدفعة الاصيلة ، ومن

الاندفاع الذي يختلط بالمادية في اتجاه معاكس ... لنفكر بحركة مثل حركة رفع الذراع، ثم لنفترض ان الذراع سقطت حينما تركت لذاتها، ومع ذلك يبقى شيء من الارادة التي كانت تنعشها، فبهذه الصورة عن « حركة خلاقة تنهار »، نكون قد حصلنا على تصور أصح للمادة. وانـــا سنرى حينئذ، في الفعالية الحية، «حقيقة تبدع ذاتها من خلال تلك التي تنهار»... وهي شبيهة بعض الشبه بالطريق الذي يفتحه السهم النـــاري الاخير، بين البقايا الهابطة من الاسهم النارية المنطفئة. (التطور الخلاق، ص : ٢٦٨ – ٢٦٩ – ٢٧٢) [1].

---

(١) تعلمنا الفيزياء ان شيئاً ماديا، في حالة تركه لذاته، تتناقص طاقته، وهذا يعني ان كمية « الطاقة المخزونة » تتناقص فيه كلما انتقل من تحول الى تحول، ولكن كيف يسلك الكائن الحي؟ انـــه يجمع، كما نرى، مواد « انفجارية ». يقول « برغسون »:

ماذا تمثل هذه المتفجرات، غير مخزون من الطـــاقة الشمسية، التي يبقى تناقصها، بصورة مؤقتة، معلقاً على هذا النحو، في بعض من نقاطها، التي كانت تتدفق منها. ان الطاقة الصالحة للاستعمال التي تحفظها المادة المتفجرة فيها، تنفق ولا شك، في لحظة حدوث الانفجار، بيد انه كان بالامكان ان تنفق من قبل، لو لم يوجد هناك جسم عضوي، يحول دون تشتتها في سبيل حفظها واضافتها الى ذاته ... ان الحياة تجمع في خزانها بعضاً من شيء، كان بالامكان ان يتبدد لولاها. انها اشبه ما تكون بجهد يحاول ان يرفع الاثقال التي تقع ...

ان جميع التحليلات التي قمنا بهـــا، ترينا في الحياة جهداً يحـــاول ان يصعد ذاك المنحنى الذي تهبطه المادة ... صحيح، ان الحياة التي تتطور، على سطح كوكبنا، متصلة بشيء من المادة. فلو انها كانت شعوراً خالصاً، لكانت فعالية خلاقة خالصة. انها في الواقع، مرتبطة اوثق ارتبـــاط بجسم عضوي يخضعها

ان كل نوع من الانواع الحية ، وكل جسم عضوي من الاجسام ، يمثل حالة من حالات التوازن ، هي حالة التوفيق بين دفعة الحياة وتهالك المادة . ان هذا انتصار الوثبة على المطالة ؛ ان الجسم الحي مقاومة مغلوبة على أمرها . بيد ان كل خلق للحياة لا بد له من ان يتخلى عن ادعاءاته في الحرية المطلقة ، وفي الخفة المطلقة . انه يعبر عن انسياق الحياة، بقدر ما يعبر عن تحريرها . ان الكائن الحي حياة ناقصة [1] .

اننا سنقول ما يعادل ذلك ، عن الانواع الحية، فكل نوع

للقوانين العامة للمادة الجامدة . غير ان جميع الامور تجري كما لو كانت تبذل جهدها لكي تتحرر من هذه القوانين ... وهي ، لانها عاجزة عن ايقاف سير التغيرات المادية ، انما تنجح في اعاقة مجراها ، مع ذلك . (التطور الخلاق ، ص : ٢٦٧ — ٢٦٨) .

(١) يقول « برغسون » :

انه اشبه ما يكون بالحقيقة ، ان تكون الحياة تنمش جميع الكواكب المعلقة بجميع النجوم . انها تتخذ لديها ولا شك ، بنسبة تنوع الظروف التي احاطت بها ، اشكالا هي اكثر الاشكال تنوعاً وابعدها عن كل ما نتصور ، غير ان لها في كل مكان نفس الجوهر ، وهو ان تجمع الطاقة الكامنة ، بصورة تدريجية ، لكي تنفقها في العمل الحر ، بصورة فجائية ... (اما على سطح كوكبنا) ، فقد كان يمكن للمجموع ان يكون اعلى بكثير مما هو كائن ، وهذا على وجه الاحتمال ، هو ما يحدث في عوالم يكون التيار فيها مقذوفاً خلال مادة اقل اباء . كما انه يمكن للتيار ايضاً ، الا يجد له منطلقاً حراً ، حتى ولا ضمن هذا الحد الناقص ؛ وفي هذه الحال ، لا يمكن للكيفية ولا للكمية في الطاقة الخلاقة التي تمثل الصورة الانسانية ، ان تتحررا على كوكبنا . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٧٣ ، ٢٢٥) .

يكشف عن توقف للوثبة الحية ، وانهيار لها ، تلك الوثبة التي تتكرر عن طريق توليد الشبيه ابتداء من الشبيه ، وتدور في دائرة ، بدلاً من ان تتابع جهدها الخلاق .

ان كل جسم عضوي فردي يخضع ، حينما يخيم عليه الموت ، الى تهالك المادة ، ذلك التهـــالك المنتصر على وثبة استنفدت قواها [1] .

بيد ان الحياة حاولت ان تجري ، في شقوق المادة ، او في نقاطها الاقل مقاومة ، شيئاً من حركتها ، حيثما وجدت فيها تلك الشقوق وهذه النقاط . لقد اتخذت ، صدفة ، عدداً كبيراً من الاتجاهات ، تبين لها فيما بعد ، ان الكثير منهـا طرق مسدودة المنافذ. ذاك هو الاتجاه الذي قادها الى سكون النبات ، او الاتجاه الذي قادها الى المجتمعات الراكدة للحشرات . أمـا السبيل الذي كان ينبغي له ان يؤدي الى الثدييات والى الانسان ، فقد لاح وحده امامها « مفتوحاً » . يقول « برغسون » [2] .

---

(١) اذا كانت المادة طباق Antithèse الحياة ، فيجب علينا ان نقول ايضاً ، ان الحياة كانت مستحيلة لولا المادة . ان المـــادة عائق ووسيلة في وقت واحد . أضف الى ذلك ان الحياة لولا هذا العائق الذي صادفته في طريقها ، لما استطاعت ان تبلغ ابداً هذه الدرجة من التوتر الذي قادها الى تحقيق مـــا لا يمكن تحقيقه ، لانه ضروري لتغلب الحيـــاة على جميع المقاومات . ان الحياة والمادة متمانعتان اذن .

(٢) ان نظرية « برغسون » عن الحياة تستدعي بعض الملاحظات :

اولاً — انها فلسفة محاربة للمادية ، بصورة جذرية ، وفي الحين الذي يرى فيه كثير من علماء البيولوجيا ان الحياة ليست سوى خاصة من خواص المادة ،

ان قوة تعمل امامنا ، بصورة مرئية ، وهي تحـــاول ان تتحرر من عوائقها ، وان تتجاوز ذاتها ايضـاً . غير انه لا بد لنا من ان ندخل في حسابنا ، عوائق من كل نوع ، تلاقيهـا هذه القوة على طريقهـا . ان تطور الحياة ، منذ اصولها حتى الانسان ، يستدعي في نظرنا ، صورة تيار من الشعور ، يندمج في المادة ، وكأنه يريد ان يفتح طريقـاً تحت التراب ، ويقوم

وان الخلية الحية ليست سوى مركب كيميائي بسيط ، لا يتقبل « برغسون » هذا التفسير ، الذي يفترض ان الصدفة وحدها ، فاعلة في اصل الحياة ، وانها هي وحدها ايضاً ، التي اثرت في تطورها . ولكن الصدفة لا يمكن ان تكون تفسيراً ، حيث يتطلب الاتجاه الثابت معجزة مجددة .

اضف الى ذلك ، ان ما هو مادي في جسم عضوي ، ليس بالحياة ذاتها ، بل انه بالاحرى الوجه السالب لهـــا ، وهذا يفسر لنا ان الحياة كان لا بد لها من ان تتقبل التوفيق بينها وبين المادة ، الذي كانت المادة قد فرضته عليها ، في سبيل تحققها . ان تفسير الحياة بالمادة العضوية ، اشبه ما يكون بتفسير النفق بالجبل ، والمرور بالعائق المتغلب عليه .

ثانيـــاً — كيف يجب علينا ان نفهم الوثبة الحية ؟ — الحق يقال : ان « برغسون » ذاته يعترف ان هذه النظرية ليست الا صيغة ميسرة لتفسير هذه الحقيقة السالبة الخـــالصة ، قبل كل شيء ، وهي ان الظواهر البيولوجية « لا يمكن » ان تفسر بقوانين المادة ؛ ومن ثمت فهي صيغة ميسرة ايضـــاً ، لتفسير هذه الحقيقة الموجبة ، وهي ان التعدد اللانهائي للكائنات الحية يتجه بالجملة نحو اشكال من الحياة ، متحررة من العبوديات المادية ومن العطالة المادية ، تحرراً متزايداً .

وفي الواقع ، انه من الممكن ان تظل هذه النظرية غـــامضة بعد في نظر الذكاء ، ولكنها ليست كذلك في نظر الحدس ، الذي يدرك من الداخل ، ما هي وثبة الحياة في كل منا .

بمحاولات ذات اليمين وذات الشمال ، ويندفع الى الامام في كثير او قليل ، ويصطدم في اكثر الاحيان ، بصخر من الصخور ، فيتكسر عليه ، ثم يعود فيظهر الى النور . ان هذا الاتجاه هو خط التطور الذي يؤدي الى الانسان . (الطاقة الروحية ، ص : ٢٢) .

ومن جهة اخرى ، هل تستمد قيمة فكرة من الفكر من وضوحها (حتى ولو كان هذا الوضوح يسيء في ادخال الوقائع في حسابه) ، ام من قدرتها على تلبس الوقائع الملاحظة ، من قرب ؟ (انظر كتاب : منبعا الاخلاق والدين، ص: ١١٦ وما يليها ، بصدد المضمون « الايجابي » لمعنى الوثبة الحية.)

ثالثاً — « ان التطور خلاق » . ان الاشكال التي تخلقها الحياة في كل جزء من اجزائها بقفزاتها المنفصلة ، على مدى تطورها ، انما هي الوان صحيحة من الخلق ، وهي بما هي كذلك ، الوان من الخلق لا يمكن التنبؤ بها . ان هذا هو ما لا تعترف به الميكانيكية الخالصة ، التي تذهب الى ان الاشكال الحية انما تفسر بحتمية الاسباب المتعددة التي تفعل فيها ، ولا المذهب الغائي الذي يرى ان هذه الاشكال ذاتها محددة بفكره الهدف الدقيق ، الذي ينبغي لها ان تبلغ اليه (ولكن منذا الذي يفكر بهذه الفكرة ؟) يقول « برغسون » :

ان الوان خلق الحياة محددة في كلتا الحالتين ، والمستقبل يمكن استنتاجه من الحاضر عن طريق الحساب ، او يرتسم فيه على شكل فكرة من الفكر ، فيصبح الزمان من جراء ذلك عديم النجوع . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ١١٩) .

ان في هذا جهلا بطابع الديمومة الخلاق ، فكل نوع من الانواع الحية هو ابداع للحياة . وهذا حل اصيل لمسألة من المسائل كانت المادة قد طرحتها على الحياة حينما عارضتها .

وانه ليستحيل علينا ان نعاود في بعض السطور ، المناقشات والتبريرات المحكمة التي اوردها «التطور الخلاق» . ان القارىء الحريص على هذه المسائل يحسن صنعاً برجوعه اليها في هذا الكتاب .

سيادة الانسان

٣

الانسان والحيوان : يقول « برغسون » :

لقد كان بامكان البعض ان يعتقدوا ان الطاقة الحية ، في احد خطوط تطورها ، التي نجحت فيها بالذهاب الى ابعد مما ذهبت اليه ، حتى وصلت الى مجتمعات الحشرات ، انما كان يمكن لها فيه ان تجر أحسن شيء لديها ، وان تستمر مستقيمة في سيرها قدماً . ولكنها انحرفت ، فانحرف بانحرافها كل شيء ، وظهرت كائنات كانت فعاليتها تدور في الدائرة ذاتها ، بصورة غير محددة ، وكانت اعضاؤها ادوات تامة الانجاز ، بدلاً من ان تترك الباب مفتوحاً ، امام ابداع لا ينى يجدد هذه الادوات ، وكان شعورها ينزلق مع نوَمان الغريزة somnambulisme de l'instinct ، بدلاً من ان ينهض ويشتد في التفكير التأملي .

تلك هي حال الفرد في مجتمع الحشرات ، ذلك الفرد الذي يدل تركيبه على علم ، ولكن الآلية كاملة لديه. ان الجهد الخلاق لم يمر بنجاح ، الا على خط التطور المؤدي الى الانسان . ان الشعور حينما اجتاز المادة ، اتخذ في هذه المرة ، وكأنه صب في قالب من القوالب ، شكل الذكاء الصانع . اما الابداع الذي يحمل التأمل في ذاته ، فأخذ يتفتح على شكل الحرية . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٢٢٣)

ويقول في مكان آخر :

ان الابداع لدى الحيوان ، ليس قط الا تغييراً في عاداته routine . ان الحيوان ، وهو سجين عادات نوعه ، لا يلبث ان يتوصل ، دون شك ، الى توسيعها بريادة initiative الفردي . بيد انه لا يفلت من الآلية الا مدة لحظة من اللحظات ، وذاك هو الوقت اللازم لخلق آلية جديدة ، وسرعان ما تغلق ابواب سجنه حال انفتاحها ، وهو حينما يشد سلسلته المعلق بها ، لا ينجح الا في اطالتها . اما لدى الانسان ، فالشعور يحطم السلسلة . انه لدى الانسان ، ولدى الانسان وحده ، يتحرر من ربقتها . ان جميع تاريخ الحياة ، حتى هذا الحد ، كان تاريخ الجهد الذي بذله الشعور ليرفع المادة عنه ، وتاريخ الانسحاق الكامل في كثير او قليل ، الذي عاناه الشعور ، من جراء المادة التي تهالكت عليه . (التطور الخلاق ، ص: ٢٨٦).

ويقول في مكان آخر :

ان الحياة تبدو ، بصورة اجمالية ، وكأنها موجة كبيرة تنتشر ابتداء من مركز من المراكز ، وتتوقف عند محيط الدائرة بأكمله تقريباً ، وتتحول الى ذبذبات في المكان ، ومن نقطة واحدة من نقاط هذه الدائرة ، يُغتصب العائق عنوة ، وينطلق الاندفاع حراً . ان هذه الحرية هي ما سجلته الصورة الانسانية . ومن كل ناحية ، ما عدا الانسان ، فقد انحصر الشعور في طريق مسدودة المنافذ ، وقد تابع طريقه ، مع الانسان وحده ، واذن ، فالانسان يتابع الحركة الحية ، بصورة لا تحديد فيها ... ان كل شيء كان يجري حسب ما يرام. ان الانسان ، او الانسان الاعلى ، حاول ان يحقق ذاته ، ولم ينجح في ذلك ، الا حينما ترك على جانبي الطريق ، جزءاً من ذاته. ان هذه البقايا تتمثلها البقية الباقية من الحيوانية ، ويتمثلها حتى العالم النباتي . (التطور الخلاق ، ص : ٢٨٨ - ٢٨٩) .

انها لنظرة رائعة ، فالحيوانية تتمثل البقايا المتتالية ، التي خلعتها الحياة عن نفسها ، في سبيل ان تصبح قادرة ، وهي اكثر خفة ، واكثر صفاء ، على ان تتجاوز ذاتها ، وتتلبس الصورة الانسانية ، التي قد تتجاوزها بدورها .

الذكاء والاداة : ان الذكاء هو الذي يضمن للانسان تفوقه. ان الحيوان يتصرف بالغريزة ، وهذا يعني انه يندفع بالقوى اللاشعورية التي نقلها اليه النوع ، والتي فرضتها عليه الحياة . فلا امكانية لديه لتنويع تكيفه مع وسطه ، ولتحرير ذاته بتدخله.

ومن اجل ذلك ، فقد انصرف الى العياد والتكرار .

ولكن ، ما السمة التي يمكن ان تخدمنا في التمييز بين الذكاء والغريزة ؟ يقول « برغسون » :

اذا استطعنا ان نتجرد من كل كبرياء ، واذا اخذنا ما يصوره لنا التاريخ وما قبل التاريخ ، بصورة دقيقة ، على انه الميزة الثابتة للانسان وللذكاء، في سبيل تحديد النوع الذي ننحدر منه ، فربما لم نعد نقول « انسان عارف»، وانما سنقول « انسان صانع » . وبصورة نهائية، ان الذكاء اذا نظرنا اليه من وجهة ما يبدو انه سيره البدي، انما هو ملكة انتاج الاشياء الاصطناعية، وبصفة خاصة ، انه ادوات تصنع ادوات ، وتغير من كيفية صنعها بصورة لا تحديد فيها .

والآن ، هل يمتلك حيوان لا ذكاء لديه ، ادوات وآلات ايضاً ؟ أجل ولا شك ، غير ان الاداة هنا تؤلف قسماً من الجسد الذي يستخدمها. وازاء هذه الاداة نجد « غريزة » تعرف كيف تستخدمها . وعلى هذا النحو ، اذا لم نأخذ مأخذ الاعتبار الا الحالات الحدية ، حيث نشاهد الانتصار الكامل الذي يحرزه كل من الذكاء والغريزة ، فاننا لا نلبث ان نجد بينهما اختلافاً جوهرياً ، فالغريزة الكاملة هي ملكة استعمال ، بل انشاء ادوات عضوية ؛ في حين ان الذكاء الكامل هو ملكة صنع الادوات غير العضوية واستعمالها .

ان حسنات هذين العالمين من الفعالية ، وسيئاتهما ، تقفز الى

العيون . ان الغريزة تجد في متناولهـــا الاداة المخصصة ، وهذه الاداة التي تصنع ذاتها ، وتصلح ذاتها ، تصنع كل ما تدعى الى صنعه حـالاً ، وفي اللحظة المرادة ، وبدون صعوبة ، وبكمال يثير الدهشة ، في غالب الاحيان . وفي المقابل ، فانها تحافظ على بنية لا تتغير تقريبـاً . اذن ، فالغريزة متخصصـة بالضرورة . وخلافـــاً لهذا ، ان الاداة المصنوعة بذكاء ، اداة ناقصة ، ولا يحظى بها الا بجهد جهيد ، بل ان استعمالها شاق تقريباً ، بصورة دائمة . ولكن ، ما دامت مصنوعة من مادة غير عضوية ، فقد كان بالامكان لها ان تتخذ اي شكل من الاشكال ، وان تنفع في اي اداء كان ، وان تنشل الكائن الحي من كل صعوبة جديدة تظهر ، وان تضع في متناول يده عدداً لا يحصى من القدرات . ان هذه الاداة ، لكونها احط من الاداة الطبيعية في ارضاء الحاجات المباشرة ، قد كان لها من الحسنات اكثر مما لها بكثير ، كلما كانت الحاجة أقل الحاحاً ... وهي ، بدلاً من ان تغلق دائرة العمل التي يتحرك الحيوان فيها بصورة آلية ، كما تفعل الغريزة ، انما تفتح امام هذه الفعالية مجالاً غير محدد ، تدفعها فيه أبعد فأبعد ، وتحررها اكثر فأكثر . (التطور الخلاق ، المقدمة وص : ١٥٠ - ١٥٣)

ان وثبة الحياة الخلاقة ، حيثما تكون مضغوطة بثقل المادة ، انما تحقق بالانسان اعلى مراحل نجاحها ، فتخلق كائناً خلاقاً ، يصنع ادوات وآلات ، فتصبح عدوته المادة بفضل هذه الآلات

وتلك الادوات ، مسترقة ومقسورة على ان تقوم بتحرير الحياة ذاتها . وخلافاً للحيوان ، المنتظر منه ان يستخدم الطاقة التي جمعتها الحياة في جوهر كيانه ببطء ، توصل الانسان الى ان يسيِّر لصالحه كميات الطاقة المخزونة ، والموجودة في العالم المادي ، وغير المحدودة بصورة عملية . وعلى هذا النحو ، تنتهي المقاومات التي كانت المادة تعارض بها الحياة. فها هو ذا العائق ينقلب ، وها هي ذي المادة ذاتها تخدم مقاصد الحياة . لقد اصبحت الانسانية سيدة مصيرها ، ومندوبة للقيام بتحرير كانت الحيوانية تتلمسه تلمساً . ان عهداً جديداً يبتدىء ، فالانسان ليس حيواناً كاملاً فقط ، بل انه الحياة ذاتها ، وقد وعت ذاتها. فليذكر ذلك ، وليذكر كرامته ، ومصيره الروحي الذي وعد به ، سواء في نوعه ام في فرده . يقول « برغسون » :

لقد زودنا الذكاء بقدرات لا تعد الى جانبها شيئاً قدرة ابداننا ، حينما رفع كيفية صنع أدواته الى درجة من التعقيد والكمال ، لم تتوقعها الطبيعة ذاتها (وهي عاجزة عن الانشاء الميكانيكي) ، وحينما ملأ آلاته باحتياطي من الطاقة ، لم تفكر به الطبيعة (وهي الجاهلة بالاقتصاد) ؛ ان هذه القدرات ستكون غير محدودة ، حينما يعرف العلم كيف يحرر القوة التي تمثلها ، بشكل مكثف ، أقل ذرة من ذرات المادة التي لها وزن . ان العائق المادي قد سقط تقريباً . وغداً سيكون السبيل حراً ، في اتجاه النفحة ذاته ، تلك النفحة التي قادت

الحياة الى النقطة التي كان ينبغي لها ان تقف لديها . (منبعا الاخلاق والدين ، ص : ٣٣٧ – ٣٣٨) .

ويقول في مكان آخر :

هل الذكاء يصنع من اجل الصنع ?... ان الصنع قائم في صوغ المادة ، وفي تطويعها، وفي طيها ، وفي احالتها الى اداة، لكي يكون الذكاء سيداً عليها . ان هذه « السيادة » هي التي تفيد الانسانية ، اكثر ايضاً مما تفيدها النتيجة المادية للابداع ذاته . فاذا حصلنا على نفع مباشر من الشيء المصنوع ... فهو شيء حقير في مقابل الافكار الجديدة ، والعواطف الجديدة ، التي يبرزها الابداع من كل جهة ، كما لو كان الابداع له نتيجة جوهرية ، وهي ان يرفعنا فوق ذواتنا ، ومن جراء ذلك ، ان يوسع من آفاقنا . (التطور الخلاق ، ص : ١٩٨) [١] .

---

(١) انظر فيما بعد ، الفصل الخامس ، القسم الثالث : مصير الانسان .

الخلق والفرح

٣

الصيرورة العامة : ان عالم العلم — كما رأينا — عالم حذف منه الزمان . فكل شيء فيه يمكن التنبؤ به ، وهذا يعني ان المستقبل يتحدد فيه ، منذ الآن ؛ حتى ان ذكاء قوياً الى حد كافٍ في قوته ، يستطيع سلفاً ان يقرأه في الحاضر . ولكن ، لماذا ينبغي لنا ، عندئذ ، ان « ننتظر » حصول الحادثة ؟ ولماذا كان مجرى الامور يجري بهذا البطء ، حتى اننا لا نستطيع الا ان نخضع له ، دون ان نغيّر شيئاً فيه ؟ اننا لا نلبث ان نقسر على الاعتراف بأن الصورة التي يعطينا اياها العلم عن العالم ، هي صورة رمزية خالصة ، تجعل « واقعة من وقائع التجربة » تفلت منا ، فتاريخ العالم ليس معطى لنا دفعة واحدة . يقول « برغسون » :

انكم تحصلون ، في الواقع ، على عالم يمكن حساب حالاته المتلاحقة ، بصورة نظرية ، سلفاً ، مثل الصور المتلاصقة على الشريط السينمائي ، قبل عرضها . بيد انه ماذا يفيدنا العرض حينئذ ؟ ولماذا تنتشر الحقيقة في الزمان ؟ تلك هي النقطة التي انطلقت منها ، فيما مضى ، بتفكيري . لقد انقضى ما يقارب خمسين عاماً على تعلقي الشديد بفلسفة « سبنسر » Spencer . وفي يوم غير متوقع من الايام ، رأيت ان الزمان لا يقوم بشيء فيها . ولكن ما لا يقوم بشيء ليس شيئاً . ومع ذلك ، فقد قلت لنفسي : ان الزمان شيء ما ، واذن فهو يعمل . ماذا يستطيع ان يفعل ؟ ان الحس السليم البسيط كان يجيبني : ان الزمان هو ما يمنع ان يحدث كل شيء دفعة واحدة ... الا يبرهن لنا وجود الزمان ، ان هناك عدم تحديد في الاشياء ؟ ألا يكون الزمان هو هذا اللا تحديد ذاته ؟ (الفكر والمتحرك ، ص : ١١٧ — ١١٨) .

ان معنى هذه الحقيقة العميق ، يدل على ان العالم صيرورة . ليست الديمومة حادثة عارضة من الحوادث ، ولا تأخراً بسيطاً محمولاً على ظهور المستقبل ، الذي سيكون ما هو جوهري فيه ، معطى سلفاً في الحاضر . فاذا كانت الديمومة غير قابلة للانضغاط في الواقع ، فهذا لانها عامل من عوامل الخلق . ان الديمومة خلاقة ، وهي تختلط بالانشاء البطيء ، الذي يولّد الاشياء والكائنات . وعندئذ ، فالانتظار يتخذ كامل معناه ، فهو ليس

توجيهاً من التوجيهات مفروضاً على مشاعرنا ، على نحو لا يمكن فهمه ؛ ان الانتظار هو ترجمة عمل أصم من اعمال النضج التي مسرحها العالم ، الى ألفاظ الشعور . وهكذا ، ان كل لحظة من لحظات الزمان تحمل معها شيئاً من الاشياء، جديداً بصورة جذرية ، واذن ، شيئاً لا يمكن التنبؤ به ؛ ان كل لحظة من لحظاته تضيف نغماً جديداً الى سنفونية العالم ، تلك السنفونية التي تبقى غير تامة دائماً ، وتبقى متتبعة ابداً . انها أشبه ما تكون بموجة تتضخم ، ثم لا تلبث ان تنتشر ، راسمة بصورة دائمة ، صورة من الصور الجديدة والاصيلة ، والتي لا يمكن التنبؤ بها [1] . هل هذه النظرية عن الاشياء نظرية « مثيرة » ؟

---

(١) غير ان ذكاءنا قد صيغ على هذا النحو ، حتى ليبدو لنا ان كل حادثة ، مهما كانت ، يمكن ان يتنبأ بها ابتداء من سوابقها . فاذا ما تحققت ، فهذا لانها كانت « ممكنة » قبل ان تصبح واقعية ، وذلك لانه كان بالامكان لذكاء نفاذ بصورة كافية ، ومستعلم بصورة كافية ، أن « يرى » الحادثة في سوابقها ، وهذا المعنى الحقيقي لكلمة تنبأ (pré - voir ، رأى من قبل) . ولكن في ذلك شيئاً من السفسطة . يقول « برغسون » :

حينما يؤلف احد الموسيقيين سنفونية من السنفونيات ، فهل كان عمله ممكناً قبل ان يصبح واقعياً ؟ نعم ، على ان نفهم بذلك انه لم يكن هناك من عائق لا يمكن التغلب عليه ، يقوم في وجه تحقيقه . غير اننا نتقل ، دون ان ننتبه ، من هذا المعنى السلبي بكليته لكلمة « ممكن » الى معنى ايجابي ، فنستنتج منه ان كل شيء يحدث ، كان بالامكان ان يرى سلفاً من قبل فكر مستعلم الى حد كاف من الاستعلام . وانه على هذا النحو ، كان موجوداً وجوداً سابقاً على تحققه ، بشكل من اشكال الامكان . (الفكر والمتحرك ، ص : ٢٠) .

كذلك :

ان هذا ما يأخذه السيد «بنداه» على الفلسفة البرغسونية. بيد ان ما تحويه الفلسفة البرغسونية من المثيرات ، ليس عيباً من العيوب الرومانتية ، التي هي نتيجة من نتائج مزاج صاحبها ، وانما هي ، بصورة مضبوطة الى اقصى حدود الضبط ، نتيجة لما في العالم من مثيرات .

فقد كانت مسرحية « هاملت » ممكنة ، ولا شك ، قبل ان تتحقق ، اذا ما فهمنا انه لم يكن هناك من عائق لا يمكن التغلب عليه ، قائم في وجه تحققها. اننا في هذه الحالة الخاصة ، ندعو ممكناً ما ليس مستحيلاً ، وبديهي ان هذه الـ « لا استحالة » لشيء من الاشياء ، هي شرط من شروط تحققه . بيد ان الممكن مفهوماً على هذا النحو ، ليس مما هو كامن ولا مما يوجد وجوداً سابقاً بصورة مثالية ، في اية درجة من درجاته . اغلقوا الحاجز ، وسترون ان احداً لن يجتاز الطريق ؛ ولا ينتج عن ذلك انكم تستطيعون ان تتنبأوا بمن سيجتازها حينما تفتحونها . انكم تتقلون خلسة وبصورة لا شعورية ، من المعنى السلبي بكليته لكلمة ممكن ، الى معناها الايجابي . كان الامكان يعني ، منذ لحظة ، « غياب العائق » ، وها انتم اولاء تجعلون منه الآن « وجوداً سابقاً على شكل افكار» ، وهذا شيء مخالف تماماً . (الفكر والمتحرك ، ص : ١٢٩ - ١٣٠) .

ان ما يحويه الماضي قبل حدوث الحادثة ليس الحادثة ذاتها في حالة مضمرة ، ولا حتى كل ما ينبغي لها ليمكن التنبؤ بها ، وانما هو فقط ، عدم قيام عائق في وجه هذه الحادثة . وهذا معناه ان الحادثة لا تصبح واقعية الا بفعل من افعال الخلق التي لا يمكن التنبؤ بها على الاطلاق .

وقد سئل « برغسون » في يوم من الايام ، اثناء مقابلة من المقابلات ، عن مستقبل المسرح ، فقال :

– لو انني أعلم ما سيكون عليه الانتاج الدرامي الكبير ، في الغد ، لكنت صنعته . ولكن الانتاج الذي تتكلمون عنه ، ليس بعد ممكناً .

– ومع ذلك ، فيجب بالتأكيد ان يكون ممكناً ، لانه سيتحقق في يوم من

وعلى هـذا النحو ، يتجدد غموض الخلق باستمرار . لقـد كانت الخطيئة التي وقع فيها الفلاسفة ، هي تصورهم لعمليـة الخلق ، وكأنهـا فعل آني حدث في بدء الزمان ، في حين انـه جهد مستمر من جهود الابداع يتتابع في أعمق الكائنات.

الايام .

— لا ، انه ليس ممكناً ، وبالاضافة الى ذلك ، فانا اوافق معكم انه سيكون ممكناً .

— ماذا تعني بذلك ؟

— ان هذا بسيط جداً . انني اعني بذلك ان يبرز رجل بارع او عبقري وان يخلق اثراً من الآثار ، فها هو ذا قد تحقق ، واصبح من جراء ذلك بالذات ممكناً ، بصورة استذكارية ، وبصورة ترجيعية . انه لن يكون ممكناً ، ولم يكن قط ممكناً ، لو لم يبرز هذا الرجل . (الفكر والمتحرك ، ص : ١٢٧).

ويقول في مكان آخر :

ان اللوحة المنجزة ، انما تفسرها هيئة النموذج ، وطبيعة الفنان ، والالوان المحلولة على ملونة palette الرسام. ولكن احداً لا يستطيع ان يتنبأ بصورة مضبوطة ، بما ستكون عليه اللوحة ، حتى ولو استعان بمعرفة ما يفسرها ، وذلك لان التنبؤ بها ، معناه ان ننتجها قبل انتاجها ، وهذا افتراض عابث ، لا يلبث ان ينحل من تلقاء ذاته . (التطور الخلاّق، ص : ٧) .

واذن ، فالواقع هو الذي يسقط فكرته و « امكانه » من خلفه ، حينما يتحقق . ولكن هذه الفكرة لا توجد وجوداً سابقاً على تحققهـا ، بأية درجة من درجاتها ، والا ، فبأي شكل ، وفي اي فكر ، كانت سابقة على هذا التحقق في وجودهـا ؟ فكأن فكرة الشيء لم تكن لاحقة لظهور الشيء بالضرورة ، حينما كان الامر ذا علاقـة بوجود من الوجودات الجديدة ، بصورة حقيقية ! يقول « برغسون » :

ان وهم التنبؤ العام ما هو الا انعكاس سراب الحاضر في الماضي. (الفكر والمتحرك ، ص : ٢١ — ٢٧) .

ليس العالم « منجز الصنع » ؛ انه عالم « يصنع » . انه يصنع تحت أنظارنا ، ويصنع فينا ؛ بل وانه يصنع من قِبَلِنا ، الى حد بعيد ، حينما يكون الامر متعلقاً بنا بالذات [1] .

* * *

الفوح : ان التأمل في الديمومة هو القيام بعمل من اعمال الايمان والتفاؤل، فهناك تيار عظيم من الخلق يبعث الحياة في العالم، الذي ينجز ذاته بصورة دائمة ، ويتجاوزها بصورة دائمة . وفي هـذا التفاؤل تقوم أصالة « برغسون » . ان هناك كثيراً من الفلاسفة تأملوا في الزمان ، بيد ان اغلبهم مثل «هيديجر» Heidegger ،

---

(١) ان اولئك الذين يأخذون على فلسفة « برغسون » انها كانت فلسفة صيرورة («بندا» مثلا) ، و « مذهباً حركياً » ، انما يحاولون ان يصلوا عن طريق ذلك ، الى مذهب في الانقضاء العام ، يذيب جميع الاشياء في الميوعة التي نجدها في مد دائم ؛ انه شيء من الاشياء ، اشبه ما يكون بمذهب « كل شيء الى انقضاء » ، الذي قال به « هيرقليطس » . بيد ان الموضوع الذي عالجه « برغسون » ليس الموضوع الشعري الذي يتكلم عن فرار الزمان ، وعن عدم ثبات الحاضر . ليس في هذا ، على وجه دقيق ، غير رؤية الحركة في الديمومة ، وجريانها الدائم ، في حين انها ايضـاً ، وبصورة اخص ، جهد خلاق . ليست الديمومة تشتتاً وميوعة ، وانما هي خلافاً لذلك ، تركز وتوتر . — هل تحذف الفلسفة البرغسونية فكرة الجوهر الثابت ؟ بكل تأكيد، بيد ان الديمومة هي « الجوهرية » . انها ، كما قال « برغسون » ، الحقيقة الاكثر مقاومة من بين الحقائق القائمة . (التطور الخلاّق ، ص: ٤٠) . (فلنتذكر مثلاً ، استمرار الديمومة في الأنا العميق ، استمراراً غير قابل للتمزق .)

قالوا بـ « شر الزمان » ، شاعرين انهم ازاء حركة جبرية ، تنزعنا من ذواتنا بصورة دائمة ، وتنزعنا من الماضي الذي يرهقنا بكل ثقله الميت ، وتنزعنا من المستقبل الذي هو رمز القلق ومحله . اما في رأي « برغسون » ، فالزمان ، خلافاً لذلك ، وعد في التجاوز وفي التحرير . وعلى هذا النحو ، ليس التأمل في الزمان عبثاً لا غناء فيه . يقول « برغسون » :

اننا سنربح فيه ما شعرنا به من اننا أصبحنا اكثر فرحاً وأشد قوة . اننا سنشعر اننا اكثر فرحاً ، لان الواقع الذي يبدع ذاته ، على مشهد منا ، سيهب كلًا منا ، بدون انقطاع ، بعض ضروب من الارضاء ، التي يفيلها الفن للممتازين من ناحية الثروة ، بين حين وحين ، ولأنه سيكشف لنا عن التجدد المتولد بدون انقطاع ، والاصالة المتحركة للاشياء ، فيما وراء الثبات والرتابة ، اللذين رأيتهما فيه ، قبل كل شيء ، حواسنا التي خدرها ثبات حاجاتنا . ولكننا سنكون أقوى بصورة أخص ، لأن عمل الخلق الكبير ، الذي هو في البدء ، والذي يستمر تحت ابصارنا ، يجعلنا نشعر اننا نشارك فيه ، خالقين لذواتنا . ان ملكة العمل لدينا ، حينما تعود فتقبض على ذاتها ، لا يلبث ان يشتد توترها . اننا ، ونحن حقيرون حتى ذلك الحين ، في اتجاه الخضوع الذي نتخذه ، وعبيد لما لا أدري من الضرورات الطبيعية ، لا نلبث ان ننتصب من جديد ، اسياداً متعاونين مع « سيد » اكبر . (الفكر والمتحرك ، ص: ١٣٣ - ١٣٤) .

ويقول في مكان آخر :

ليست اللذة الا حيلة مصطنعة تصورتها الطبيعة ، لكي تحظى من الكائن الحي بحفظ الحياة ؛ انها لا تشير الى الاتجاه الذي قذفت فيه الحيـــاة . بيد ان الفـرح يعلن بصورة دائمة ان الحياة اصابت نجاحاً ، وانها اكتسبت ارضاً جديدة ، وانهـا احرزت نصراً ، اذ ان كل فرح عظيم له اشارة انتصـــار تدل عليه ... وحيثما كان هناك فرح ، كان هناك خلق ، وكلما كان الخلق أغنى ، كان الفرح أعمق . ان الام التي تنظر الى طفلها لفرحة ، لأنها تشعر بانهـــا خلقته من الناحية الطبيعية ، ومن الناحية الادبية ... دونكم ضروباً استثنائية من الفرح ، مثل الفرح الذي يعانيـه الفنان الذي حقق فكرته ، ومثل الفرح الذي يشعر بـه العالم الذي اكتشف او ابدع . انكم تريدون ان تقولوا ان هؤلاء الرجـال انمـــا يعملون من اجل المجد ، وانما يستمدون افراحهم العميقة الى اقصى حدود العمق ، من الاعجاب الذي يوحون به . يا للخطإ الفـــادح ! ان المرء يعتمد على المدح وعلى الوان الشرف ، حينما لا يكون متأكداً تأكداً مضبوطاً من نجاحه ... ان المرء انمـــا يريد ان يحيط انتاجه باعجاب الناس الطار ، لكي يضمن انهم يحبذونه ، ولكي يعضد حيوية هذا الانتاج ، التي قد تكون غير كافية ... غير ان من هو متأكد ، بل ومتأكد بصورة مطلقة ، من انه اتى بانتاج حي ويستحق البقاء ، فانه لن يكترث بالمديح ، وسيشعر

بذاته فوق كل مجد، لأنه خالق ولأنه يعرف انه خالق ، ولأن الفرح الذي يعانيه فرح إلهي . واذن ، فاذا كان انتصار الحياة هو الخلق في جميع المجالات ، ألا ينبغي لنـــا ان نفترض ان الحياة الانسانية لها داع لوجودها ، في عملية الخلق ، التي يمكن لها ان تتتابع ، لدى جميع الناس ، في كل لحظة من اللحظات ، مع حفظ الفارق بين عملية الخلق لديهم وعملية الخلق لدى الفنان أو العالم ، وهذه العملية هي ان يخلق المرء ذاته بذاته ، وان ينمي شخصيته ، بجهد يستمد الكثير من القليل ، وشيئاً من لا شيء ، ويضيف غنى الى ما كان في العـــالم من غنى ، بدون انقطاع ؟ (الطاقة الروحية ، ص : ٢٤ — ٢٥) .